العنوان: الماء بمنطقة تافيلالت من خلال وثيقة جديدة

المصدر: مجلة أمل
الناشر: محمد معروف

المؤلف الرئيسي: العلوي، محمد لمراني

المجلد/العدد: مج 8, ع 24
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 2000
الصفحات: 75 - 93
رقم MD: 409208
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع: الوثائق التاريخية ، المياه ، تافيلالت ، المغرب ، الاراضى الزراعية ، الزراعة ، القبائل البربرية ، الجفاف ، المشكلات الاجتماعية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/409208

الماء بمنطقة تافيلالت من خلال وثيقة جديدة

محمد لمراني العلوي*

انطلاقا من مدى تقدير الإنسان لنعمة الماء تبدو لنا أهميته بالمنطقة، بل لعله الأول بالنسبة لحاجياتها أثناء النصف الثاني من القرن 17م إن لم نقل في جميع أحقابها، ولذلك حفلت بالقوانين والتشريعات التي تتناول النزاعات المتعلقة بالماء.

وهكذا نجد من الأمثال الشعبية الرائجة ما تقول:"خسارة الماء ولا خسارة الشمس" يعني أن الخسائر التي قد تصيب البلاد من السيول مهما تكن فإنها أحسن من الخسائر التي تهدد البلاد من انحباس الأمطار(1).

ومهما يكن من أمر فإن مشاكل المياه متباينة ومتعددة ولا يمكن حصرها بآية حال من الأحوال ولهذا نجد التاريخ يتحدث عن المعارك التي دارت بسبب الماء حيث يقول صاحب الاستبصار في أهل قفصة:"... إذا رأيت قوما يتخاصمون، وقد علا بينهم الكلام، فاعلم أنهم في أمر الماء..."(2)، وهذا ما سيتم إبرازه من خلال الوثيقة الجديدة.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب بمكناس

تعريف الوثيقة الجديدة.

إن الوثيقة التي اعتمادناها في بحثنا كأساس مرجعي لمعرفة المشاكل الاجتماعية المترتبة عن الماء تكمن في كونها وثيقة تتمحور حول انهيار سد "أنبذور" وما تسببه من مشاكل نتيجة فيضان عام 1090هـ ، والوثيقة مكتوبة بمداد الصمغ على جلد الغزال وبخط فيلالي تقليدي، حيث يبلغ طولها 27 سنتمترا وعرضها 26 سنتمترا. وهي مؤرخة بتاريخ أواسط ذي الحجة عام ألف وخمسة وتسعين هجرية (1095هـ) ومعاصرة للسلطان مولاي إسماعيل (1672 – 1727م)، ويبلغ عدد السطور بها ثلاثين سطرا ومختومة بطابع القاضي أبو الوليد عبد المالك بن محمد التجموعتي منفذ الأحكام الشرعية لدى السلطان بسجلماسة، وقد قام بتوقيعها في أولها وآخرها. كما يوجد في أسفل الوثيقة إمضاء ممثلي كل القبائل المتنازعة والمكونة أساسا من "وادي إفلي" و"تانيجيوت" و"تيطاف" من جهة ورابطة أهل "أنبذور" من جهة أخرى، ونشير أيضا إلى أن الوثيقة تضمنت معلومات خاصة بشأن القاضي الذي سبق أبا الوليد، ولعله السيد رضوان حسب بعض مصادر الفترة أو أبو عبد الله محمد بن محمد التجموعتي.

التعليق على الوثيقة.

يلاحظ من خلال الوثيقة أن النازلة الواردة بها تهم في بداية الأمر قبائل "تانيجيوت" و"أهل تيطاف" من جهة عبر ساقيتهم المنشقة على سد المعاليق التي توجد في عالية سد "أنبذور" وقبيلة أهل "أنبذور" من جهة أخرى، أما في آخر أمرها ، فإنها تهم كل القبائل التي توجد في سافلة سد"أنبذور" والتي تتمثل في "تانيجيوت" وتيطاف و"وادي إفلي" عبر الساقية المسماة"الوسطانية" والساقية الأخرى المسماة "المدرارية" والقائمتان على سد الرصيف(3)، حيث توجد في سافلتها العديد من السدود(4) والسواقي التي تسقي مزارع "وادي إفلي" وقبائل السفالات.

فأما بخصوص قبائل"تانيجيوت" فإن مجالاتها ومزارعها تتواجد بالجهة الشـــمالية الشرقية لموقع سجلماسة الأثري، وشرق وادي زيز المعروف سابقا بالوادي الأعظـــم ، أو ما يسمى وادي سجلماسة، أما قبائل تيطاف فتوجد شــــرق الـــوادي، إلا أن مجالاتهـــا تواجدها، تتحدد بمجموعة "وادي إفلي" في غالب الظن. حيث تشير بعض الدراسـلت أن أحد الأشراف العلويين(5) أثناء بداية القرن السابع عشر الميلادي انتقلوا من قصر تيعرمـــت الموجود بـــ"وادي إفلي" قرب القصبة الزيانية إلى منطقة امدغرة، فبنوا هناك قصر اسمــــه "تيطاف" وربما يرجع اشتراكهم في سد المعاليق وساقيته إلى وجود أملاط خاصة بهـــم أو جماعية كالأحباس بنطاق "تانيجيوت" على الرغم من بعده على مجالات تواجدهم.

وبالنسبة لرابطة أهل "أنبذور"، فإنها تتواجد بالجهة الشمالية الغربية لموقع حاضرة سجلماسة وغرب واد زيز حيث تسقي مزارعها ونخيلها بواسطة السد والساقية المنســوبة لهم. وتتكون هذه الرابطة من قصور أولاد الإمام، تحسنونت، الجبيل، لجارشة، بالإضافــة إلى قصور أخرى لم تكشف عنها الوثيقة.

أما بخصوص القبائل الواردة في آخر النازلة، فإنها تتكون من قبائل "وادي إفلـــي" التي تتواجد أهم مجالاتها شرق واد زيز، حيث تسقي مزارعها بواسطة سد "واد الشرفاء". كما تتواجد أسفل هذا السد قبائل السفالات التي تتحدد أهم مجالاتها ومزارعها بالجهـــة الغربية الجنوبية لحاضرة سجلماسة.

والملاحظ مما تضمنته الوثيقة، ان منطقة تافيلالت – زيز الأســـفل – شـــهدت مشاكل اجتماعية مرتبطة بالمياه أثناء الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي. فخلال هذه المدة ازداد منسوب المياه بوادي زيز مما أدى إلى انجراف سد "أهل أنبذور" وهذا مـــا جعلهم يلتمسون نيل حاجاتهم ومطالبهم بشتى الوسائل الشيء الذي يبين لنا مدى أهميـــة السد في إنماء التكتلات القروية والنسيج الاجتماعي للمنطقة.

فعند انجراف السد المشار إليه حدا بهم الأمر إلى استفسار القـــاضي في نازلتـــهم بسبب تعذر تناول الماء لمزارعهم. وأمام إلحاحهم على حل المشكل. أرسل القـــاضي ذوي

الخبرة والمعرفة لمعاينة مدى قابلية إصلاح السد. إلا انه برجوعنا إلى مضامين الوثيقة، نرى بعض المعطيات التي يجب الحذر منها: فكاتب الوثيقة استعمل مصطلح "بزعمهم" مما يوحي لنا بطرح بعض الاستفسارات حول مدى أو عدم تحامل كاتب الوثيقة عليهم. لكن إرسال ذوي الخبرة والمعرفة يوضح شك القاضي فيما ادعوه. فمن خلال تتبع الأحداث يتضح أنهم وجدوه قابلا للإصلاح، وهذا ما يجعلنا نتساءل: هل امتناعهم عن بناء السد يرجع إلى كثرة التكاليف التي يتطلبها؟ أم أن لهم نوايا أخرى؟

حسب استطلاعنا الميداني وما تشير إليه الوثيقة فإن السد الذي فوق سدهم المسمى بسد المعاليق لا يبعد عن سد "أنبذور" سوى بثلاثمائة متر تقريبا(6).

ومن المعروف أن أهل العالية تفوق حصتهم من الماء أهل السافلة، ونظرا لما تسببه قلة الماء أرادوا إيجاد تبريرات للرفع من كمية المياه قصد تجاوز المشاكل الناجمة عن قلة المياه، خصوصا إذا علمنا أن التساقطات المطرية تتميز بعدم انتظامها. أضف إلى هذا أن اشتراكهم في السد يجعلهم يتلقون كمية من المياه تسد حاجاتهم، مع العلم أن مستوى ساقيتهم منخفض بالمقارنة مع ساقية أهل العالية.

ومهما يكن من هذه النوايا، فإن أهل المعاليق قبلوا إعارتهم الساقية على أساس إصلاح سدهم، ويتبين هذا، انطلاقا من عدة معطيات توضحها الوثيقة.

- طلب المساعدة من أهل " تانيجيوت" جاء قصد تجاوز المحنة التي أصابتهم.
- تمت إعادتهم الساقية لتدارك إتلاف محصولاتهم الزراعية.
- الرفق بهم في هذه اللحظة جاء حسبما هو وارد ومنصوص عليه في الكتاب والسنة.

وعليه يبدو لنا أن قبائل "تانيجيوت" و"أهل تيطاف" غير ملزمين بما طالبهم به أهل "أنبذور"، وإنما الأمر راجع إلى الاختيار، ولعل ما يبين هذا ما قد تضمنته الوثيقة من مصطلحات من قبيل "الندب"، "الرفق"، "الربو" و"الإعارة"، إلا أن هناك بعض المسائل ينبغي النظر فيها. ألم يكن أهل العالية قد استحضروا تمرد أهل السافلة عليهم في حالة عدم تلبية مطالبهم؟

يبدو هذا السؤال صعبا، لكن وحسب ما تورده الوثيقة، فإنهم استحضروا الشرع لا غير، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الماعون: (فويل للمصلين الذيـــن عـــن صلاتهـــم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون"(7)، حيث يفسر ابن حزم الأندلسي، في كتابـه المحلى: الماعون فيما نقله عن شعبة ثم اتفق عن أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن عيـــاض عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: الماعون: منع القدر، الفأس، والدلو(8)، كما ذكر محمد الشوكاني في "نيل الأوطار" وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:" من منع فضل مائه أو فضل كلئه منعه الله عـــز وجـــل فضله يوم القيامة"(9) (رواه أحمد)، لكن يلاحظ أن أحداث النازلة لم تقتصر على وقـــت قصير بل خضعت لعدة سنوات، ذلك أن الأمر تغير بعد سنة 1088هـــ ، حيث عرفـــت خلال السنوات المتتابعة بين 1088هـــ و1092هـــ ارتفاعا في منسوب المياه بلغ أقصاه سنة 1090هـــ ، مما أدى إلى انهيار سد أهل "أنبذور"، وبعد سنة 1092هـــ عرفـــــت منطقـــة تافيلالت – زيز الأسفل – شحا في المياه أعقبتها فترات الجفاف مما أدى إلى طرح عـــدة مشاكل أبرزها تعقد المسألة المتعلقة بسد "أنبذور"، حيث يشير صاحب الوثيقة إلى عـــدد من المعطيات التي ظهرت على السطح من جراء المشاكل المرتبطة بالماء ، وهي:

- مطالبة أهل "تانيجيوت" من أهل السافلة ببناء سدهم.
- رغبة أهل السافلة المشاركة معهم في سد المعاليق ولو بدفع التعويض.
- رفض أهل العالية لمطالبهم مستندين في ذلك على مجموعة من العلل والحجج.
- التماس أهل السافلة من القاضي ببناء ساقية أخرى فوق سد المعاليق.

فمن خلال هذه العناصر يمكن استنتاج أن قلة الماء في المنطقة زكت الصراعـــات بين القبائل وجعلتها في مواقف الحيرة والارتياب واللجوء إلى الأساليب غير المجدية والـــتي تنعكس على كل الأطراف. فبالرغم من أن السدود من الوسائل التي تستعملها القبـــائل للزيادة في المنتوجات الفلاحية لمواجهة المشاكل الاجتماعية، فإن الأسبقية إلى الماء تظـــل العنصر والهاجس الرئيسي لدى القبائل وهذا ، ما تمت ملاحظته بخصوص قبيلة "أنبـذور".

ويفسر ذلك بتدني وعيهم في حسم الخلافات والصراعات حول الماء وعدم احترامهم حسن الجوار خاصة إذا ما علمنا أن أهل "أنبذور" يفتقرون إلى أدلة قانونية وشرعية تدعم مطالبهم على خلاف أهل "تانيجيوت" و"تيطاف" الذين يستندون إلى مجموعة من الحجج، اهمها:

- إن أهل العالية لهم أحقية السبق إلى الماء من أهل السافلة.
- شهادة أهل الخبرة والمعرفة بقابلية إصلاح سد "أنبذور" في أقرب مدة.
- حصول ساقية "أنبذور" على كمية من المياه تفوق ساقية المعاليق.
- الاتفاق على إعارتهم الساقية، وليس مشاركتهم في السد.

انطلاقا من هذه الدلائل يبدو لنا أن مطالبهم تظل مجرد ادعاءات. ففي بداية الأمر كان الموقف الأول هو "أن الضرورات تبيح المحظورات" أما الأمر الثاني فتغير الموقف نتيجة الأسباب والعوامل السالفة الذكر. وهذا ما يفسر لنا أن هناك عوامل تلقائية يتم التعبير عها من قبل أهل "أنبذور" بسلوك غير واع، نظرا لتعسفهم في استعمال الحقوق غير الشرعية والضرر بجيرانهم. ونظرا لأن هذه التصرفات، تتنافى مع ما جاء في الشرع والأعراف الاجتماعية المحلية، فإن القاضي دعم أراءه وفقهه باستعماله قاعدة "ترجيح المصالح" مستندا في ذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم:"لا يحتلبن أحد ماشية أحد بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشروبته فتكسر خزانته، فينتقل طعامه وغنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمتهم فلا يحتلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه"(10).

إلا أن ما يثير الاستغراب أن أهل "أنبذور" استغلوا سفر القاضي إلى السلطان المولى إسماعيل بمدينة مكناس، فقاموا ببناء سد آخر على علو مرتفع، تحت سد "المعاليق" الشيء الذي يبين لنا – اعتمادا على هذه الوثيقة وعلى ما تم استقراءه من مصادر الفترة – أن المجتمع الفلالي كان يعيش حالة الفوضى نتيجة مشاكل المياه وكذا انعكاسات الصراع السياسي حول السلطة بين السلطان المولى إسماعيل وابن أخيه أحمد بن امحرز(11)، وهذا ما جعل بعض القبائل ومن ضمنها أهل "أنبذور" أن استغلت الفرص السياسية معتمدة في

ذلك على قوتها العصبية للتمرد على القبائل الأخرى، قصد تحقيق ما تصبو إليه خصوصا إذا علمنا أن أغلبية المجتمع كان يعيش حالة الفقر المدقع، ومما يدل على ذلك، استغلال الأرامل والأيتام عند الحاجة.

ومهما يكن من أمر، فإن بناء السد على علو مرتفع أدى إلى الإساءة بأغلبية سكان تافيلالت الذين يتواجدون في سافلة السد المقام، حيث تتكون هذه القبائل بالإضافة إلى "تانيجيوت" عبر سدها الآخر المقام على سد الرصيف من قبائل "وادي إفلي" والسفالات، والتي رفعت الدعوة ضد أهل "أنبذور" عند وصول القاضي إلى سجلماسة، وهكذا يبدو أن علاقة رابطة أهل "أنبذور" مع القبائل والمخزن شابها نوع من التوتر بسبب عدم طاعة أهل "أنبذور" لسلطة الدولة وذلك انطلاقا من الأساليب التي مارستها على جيرانها والتي من خلالها ثبت نوع من التمرد والعصيان على السلطة والقبائل وهذا ما تشير إليه الوثيقة إذ تقول:"فكما تماديا على غيهم وتمردهم وتعامي عن الحق بتلذذهم وتمردهم حاشا قبيلة السيفة. فقد دبروا ورفعوا التزاع وقدر بإصلاح سدهم القديم بعد وضوح الحق..."(12).

وإذا كانت قبائل "أنبذور" أرادت الاستمرار في نزاعها طوال المراحل التاريخية لأحداث النازلة التي امتدت أكثر من عشر سنوات على ما يبدو، فإنها في الأخير أخضعت للحق والصواب بعد تناسيها استحضار المصلحة العامة التي تطبق مبادئها سلطة الدولة عن طريق استحكام الشرع والقوة.

المشاكل الاجتماعية المترتبة عن الجفاف بالمنطقة

ظاهرة الجفاف:

ويظهر من خلال دراستنا لظاهرة الجفاف بمنطقة تافيلالت زيز الأسفل أثناء النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، أن مشاكل قلة المياه والجفاف، هي الثلبت الحاضر في حياة السكان، حيث كانت تزداد حدة كلما انخفض منسوب المياه في مجرى النهر، ونضب المياه الجوفية التي غالبا ما تتزامن مع فصل الصيف، وهذا ما علق عليه

الحسن الوزان:"...وكثيرا ما يجف النهر في هذا الفصل، يعني الصيف ويقل الماء جدا بحيث لا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة"(13).

فيلاحظ من خلال الوثيقة الجديدة أن المنطقة تعرضت لظاهرة الجفاف أثناء النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، خصوصا بعد سنة 1092هـ . وهذا ما جعل اقتصادها يخضع للظروف المناخية متميزا بالقلة على صعيد الإنتاج والتراكم ولا يحقق الاكتفاء الذاتي باستمرار. وبمجرد ما ينقطع سقوط المطر حتى يظهر شبح المجاعة وتكون السنة موسومة بالجفاف لتعم المسغبة على مختلف أقطار المنطقة. ولعل المتضرر أثناء الأزمة هي الحياة الفلاحية(14). وهذا ما أبرزه القادري بخصوص جفاف 1083هـ الذي شمل كل بلاد المغرب حيث يقول:"وبلغ القمح أربعين أوقية للوسق على حسب صاع ونصف في مد ذلك الوقت. وبلغ الصابون أربع موزونات للرطل. و لم يظهرن والسمن ثلاث أواق والزيت كذلك ... وبلغ ثمن الكبش عشرة مثاقيل فما دون"(15). هذا الارتفاع في الأثمان وما صاحب ذلك من تأخر المطر وتنقلات القبائل المستمرة وانعدام الأمن أدى إلى تعطيل الأشغال الفلاحية بالمرة.

المشاكل المرتبطة بالجانب الاجتماعي وآثارها السلبية:

لقد شهد المجتمع الفيلالي في فترة ما بين سقوط الدولة السعدية واستقرار الدولة العلوية مشاكل عديدة أثرت على أنماط عيشه. وازدادت ضراوته نتيجة الجفاف الذي تعرضت له وما صاحب ذلك من مجاعات وأوبئة إلا أن ما يثير الانتباه بخصوص هذه الظاهرة، أن منطقة تافيلالت – زيز الأسفل – لم تتضرر في نفس الوقت الذي جاءت فيه الأزمة لمعظم جهات بلاد المغرب الأقصى، وهذا ما كشفت عنه الوثيقة بخصوص أزمة 1088 هـ إلى 1092هـ، حيث أن هذه الفترة عرفت فيها المنطقة سنوات ممطرة خلافا للمناطق الشمالية(16). كما لوحظ من قبل بعض الدارسين بخصوص الأزمة التي عمت بلاد المغرب الأقصى سنة 1073هـ، أن المنطقة كانت أخف ضررا من باقي المناطق حيث تشير النصوص التاريخية بخصوص هذه الأزمة أن مدينة فاس "أكلت فيها الجيف وكثر الموت

وكان عدد من دفن من الأموات من المارستان دون ما دفن من الأزقة، أربعة وثمانين ألفـا في ما قيل ... وأكل الآدمي وخلا الدوح وهو معروف بطالعة فاس فلم يبق فيه إلا نحـو ثلاثين رجلا، بعد أن كانوا ستمائة، ورحلت حومات وعطلت مساجد..."(17) ويضيـف قائلا بخصوص أزمة 1088هـ"... وفي أوائل العام ظهر طاعون بتطاون. وفي حوز بـني زيات، ثم فشا في البلد ووقع الموت ... ووقع بفاس ريح وسعال وظهر الجـراد بحـوز مراكش إلى سلا إلى تافيلالت فأفسد الجريد واشتد الغلاء..."(18) وطبيعي أن تؤثر هـذه الأزمة على التجمعات البشرية. وهكذا استضافت تافيلالت من جرائـها العديـد مـن الهجرات نظرا لعدة أسباب:

أولها: لأن النخيل مصدر حيوي لعيش السكان يمكن أن يصمد إزاء النقص الظرفي للمياه. ويتحمل الجفاف نسبيا أكثر من المزروعات الأخرى.

ثانيا: لأن موسم جني المحصول يصادف فصل الخريف، ومن تم فإن سكان الواحات ظلـوا يعيشون على مدخر السنة المنصرفة من التمور.

وهذا ما جعل هذه المناطق مقصدا للسكان المهاجرين الفارين من المجاعة القادمين من المناطق الداخلية. أضف إلى ذلك أهميتها الاقتصادية المتمثلة في تجارة الذهب(19).

وتشير النصوص التاريخية بخصوص أزمة1089هـ (وظهر الطاعون في مكناسـة الزيتون دار الملك إلى أن بلغ الموتى بها ثلاثمائة إلى ان ضعف، فبلغ الموت في اليوم الواحـد خمسين وظهر بمراكش فبلغ بها آلفين في اليوم الواحد وأكثر ومات بمدغـرة وتـافيلالت وسائر بلاد الصحراء مالا يحصى"(20) ومهما يكن من صحة ما عبر عنه القـادري فإنـه تجاوز حد المبالغة بسبب هول المصائب وهذا ما أشار إليه الأسير مويط " فإذا كان الملـك لم يرد أن ينتقم من أسدنا. فإن الله فعل ذلك بعد قليل، وخلصنا منه بسـبب الطـاعون الذي سلطه على البلاد كلها والذي بدأ عام 1088هـ. وأهلك نصف أولئك الـبرابر ... طول فترة العدوى التي دامت ثلاث سنوات"(21) هذه الأزمات الـتي أصـابت منطقـة

تافيلالت – بل المغرب كله – هي ما جعلت اليوسي يشير في نص رسالته إلى نتائجها السلبية حيث قال:

"فعمت الأهوال وسدت المسالك. وتتابعت الأهوال وسدت المسالك وتتابعت الفتن فكان الاتصال بين أجزاء المغرب متعذرا على الناس"(22) ويذكر اليوسي بخصوص النهب والسرقة التي تعرضت لها مناطق الصحراء وتافيلالت – زيز الأسفل -. "وأما قطع الطريق، فغنما كان في أيت عطة وذلك ديدانهم من قديم الزمان ... وإنما يخادعون تارة على التمر وتارة على الزرع وسراياهم سارية في كل أرض من هاهنا إلى درعة لا في هذه الأرض وحدها وما تحركوا هنا حتى قضوا الغرض في الصحراء فقتلوا الفقراء (أولاد من لا يخاف)(23) خارج النهر، واستباحوا تلك البلاد كلها كما للحكم. فلا يسافر أحد إلا على خطر وكم أغنام نهبت كما لأهل الرتب وغيرهم وكم قافلة وكم جريح وكم قتيل..."(24) كما تبرز أثر المشاكل والمحن التي تعرضت لها تافيلالت من خلال ما ذكره القادري في التقاط الدرر " وفي أوائل ذي القعدة من عام 1088هـ جيء بمولى الحران مسلسلا من تافيلالت ثم من عليه أخوه السلطان وأعطاه خيلا ومداشر بالصحراء يعيش بها..."(25).

ويعلق اليوسي على القبائل التي تم استغلالها من قبل اللصوص قائلا:"فهذه القبائل تبقى في حيرة عظيمة إن هربوا وجلوا عن بلادهم. ضاعوا وضاعت المطالب السلطانية ثم لا يتركون لذلك، وإن بقوا فإن عقدوا مع هؤلاء الظلام هدنة إلى أمد ما، أنكر الخدام ذلك وسعوا به إلى السلطان وانهم اتفقوا مع البغاة فيأمر بعقوباتهم. وإن بقوا بلا شيء أهلكهم اللصوص فينهبون كل ليلة"(26).

وطبيعي أن تؤثر هذه المشاكل والمحن على الحياة الاجتماعية بتافيلالت – زيز الأسفل – وينعكس ذلك على هبوط معنويتهم ولا أدل على ذلك من تسمية زمانهم "بآخر الزمان" وهذا ما سبق لليوسي الذي كانت له المشيخة في أسرة التجموعتي بتافيلالت أن أشار إليها في الرسالة المطولة للمولى إسماعيل من وجوب الاعتناء بالتعليم

ورفع الجهالة عن الناس خصوصا بالبادية وهكذا يقول:"ولكن لا يختص ذلك بالحـاضرة، فإن أهل البادية أحوج ... فالاعتناء بهم أهم وأن منهم من يكون التعليم في حقه كأنـه تبليغ الدعوة من أهلها..."(27) وهذا ما يشير إليه محرر الوثيقة بخصوص هـذه الحالـة إذ يقول:"وقد ناول العلماء ذلك باستقامة الزمن والناس ووقوفـهم مـع الحـق والعـدل والإنصاف زمن عمر رضي الله عنه وتغيرت الأحوال واستحلال الناس ما ليس لهـم في عهد الإمام مالك رضي الله عنه..." ثم يضيف **"ويأبى الله إلا أن يتم نوره"** إلى أن يقول:" وتمردوا وتعاميا عن الحق بترددهم وتمردهم..."(28).

وبالرغم من أن الخطاب موجه إلى بعض قبائل تافيلالت، المتمثلة في رابطة أهـل "أنبذور" لكن في مضمونه وتشخيصه تصويرا للحالة التي كان عليها المغـرب كلـه في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، إن لن نقل الحالة التي كان عليـها العـالم الإسلامي. ويستدل هذا بما قاله الإمام محمد بن سعيد المرغيثي شيخ أبي علي اليوسي حين يقول:"بأن هذا الزمان هو محل كل معنى خبيث يقل فيه الخير ويكثر فيه الشر وينعدم النفع ويعظم الضر، ويظهر الفساد في البر والبحر، وينعكس الحال في كل أمر، ويكون المتمسك فيه على دينه كالقابض على الجمر"(29).

ومهما يكن من الأحوال فإن هذا النص يوحي لنا بان المجتمع الفيـلالي خـلال الفترة المدروسة ساد فيه الفساد في المعاملات والأخلاق وهذا ما يؤكده محـرر الوثيقـة بخصوص ممارسة أهل "أنبذور" عندما يقول:"وأخذوا في بث الرشاوي وتوزيع الدراهـم على الأرامل والأيتام ليدفعوها في إبطال الحق وإحقاق الباطل..."(30) وهذا ليس بـالأمر الغريب نظرا للفترة العصبية التي مرت بها تافيلالت والمغرب الأقصى، خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ما وظيفة العلمـاء والفقهاء في هذه الفترة ؟

إن الجواب نجده في كتاب المحاضرات لليوسي في قوله:"وأما الزمان فلا تسأل عنه وقد ورد في الحديث: (صنفان إذا صلح صلح الناس وإذا فسد أفسد النـاس. الأمـراء

والعلماء) وقد فسد جميعا وإلى الله المشتكى وكان الأمر يصلح بأئمة العدل، وفقه الفقهاء وآداب الصوفية، وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداهنة والبدعة، ففسد الدين بهم أولا والدنيا ثانيا..."(31) لكن تصوير العلماء بهذه الحدة بعيد عن الصحة وفيه نوع من الإقصاء خصوصا إذا ما علمنا أن اليوسي سبق أن كانت له مشيخة في أسرة التجموعتي حيث نال العلم من علماءها وفقهاءها وأفاضلها كما تذكر لنا الوثيقة بأن أبا الوليد عبد المالك بن محمد التجموعتي كان قاضيا، عالما، فقيها، ومدرسا بسجلماسة وقد انتشر صيته في بقاع العالم الإسلامي(32) بتبحره ونبوغه في العلوم الفقهية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على موقفه من قضية علم النبي، التي سأله عنها الشريف محمد بن السلطان مولى إسماعيل مما جعل اليوسي يرد عليه في رسالته وهذا ما حدا بالشيخ عبد المالك التجموعتي أن يرد عليه بلهجة عنيفة تستند إلى الدلائل والبراهين، في موافقته لقضية علم النبي. وهذا الرد هو " الأسطار البوسية في خلع الأطمار اليوسية" وقد سبق له أن أجاب على سؤالها لأبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي، وذلك في كتابه المعروف "ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب " إلا أن ما يلاحظ من خلال المراجع أن المنطقة قد تأثرت بالصوفية ومادئها رغم أنها محج للعلماء والطلاب وهذا ما يشير إليه أبو سالم العياشي في رحلته "ماء الموائد" حيث يقول:"ولقيت من أفاضلها ومجمع فواضلها...ونموذج علمائها جامع الشرقيين وطيب الطرفين"مولي محمد بن مبارك..."، ثم يضيف قائلا:"ولقيت أيضا خطيب جامعها الأعظم ومدرسها الأفخم الفاصح اللسان والنبت الجنان ذا الهمة العالية والوجاهة السامية مولي محمد بن عبد الله بن السيد...ولقيت أيضا في ذلك المجلس الفقيه الأجل القاضي الأنجل السيد رضوان وأما الأخوان الأمجدان الاستعداد الفقيه المدرس سيدي العربي بن عبد العزيز وأخوه الأديب الأرض سيدي امحمد فلم ألقاهما إلا بعد انفصالنا من البلد..."(33).

يتبين من هذه النصوص أنها بعيدة عن مضامين الموضوع، إلا أنها في حقيقة الأمر تصور لنا أوضاع التعليم والعلماء في المنطقة خصوصا إذا علمنا أن هذه الفترة كثر فيها

التصوف والانزواء على النفس رغبة في النجاة بالأنفس والتفـــرغ لإصـــلاح الـــذوات. وكنتيجة لهذا الميل العام نحو التصوف، كثرت الطرق الصوفية وتعددت الزوايــــا حـــتى خلقت لنا في وسط المجتمع تيارا هداما أساء إلى الصوفية بوجه عام. نظرا لطبيعة الأزمـــة التي تخبطت فيها تافيلالت.

ومهما يكن من أمر فإن تيار الصوفية انتشر بتافيلالت خلال النصف الثاني مــــن القرن السابع عشر الميلادي. ويؤكد هذا أبو سالم العياشي في رحلته إلى سجلماسة عندما يقول:"ولم نتفرغ لزيارة الصالحين الأموات ولا لقاء الأفاضل الأحياء. فما زرنــــا مـــن مزاراتها إلا قبر الولي الصالح سيدي عبد الله الدقاق وكفى به وما تركنا زيارة غير رغبـــة عنه بل لما ذكر من الاستعجال والشيخ الدقاق من ظهرت بركته وارتفع صيته وهو ممـــن ذكر التادلي في التشوف وآثر من أحواله وكرامته وما يدل على شرف قدره ونباهة أمـــره وهو من أهل السادسة والله اعلم..."(34).

يستفاد من مضامين هذا النص، ومن خلال قراءتنا لآثار هذه الفترة، ما يدل على تأثر المجتمع الفيلالي بالطرق الصوفية الزائفة التي تدعو إلى الإيمان بالخرافـــات والأوليـــاء الصالحين المزيفين، التي أثرت سلبا على المجتمع الفيلالي بل المجتمع المغربي فجعلت الناس لا يفهمون الإسلام إلا من خلال ذلك الضباب الكثيف من الخوارق والكرامات الكاذبـــة وغير ذلك مما يتلقونه من أولئك الشيوخ المبتدعين. وساعد على ذلـــك تفشـــي الأميـــة خصوصا في أوساط النساء كما أن الجهل كان ضاربا أطنابه بين العوام فالناس ابتعدوا عن السنة وأحلوا مكانها الاحتفال بالمواسم الدينية بين جنبات الأضرحة والمزارات التي كـــانت تبث فيها أنواع من الخرافات الاعتقادية المتمثلة في شخصية القطب(35).

وقد يذهب الاعتقاد إلى درجة التبرك والإيمان بخوارق بعض الأشـــياء الجـــامدة حيث يذكر اليوسي حكاية الشجرة بسجلماسة، التي أمر أحد الفقهاء بقطعها. فـــأصبح "كل من يمر فيراها تقطع يصيح ويتأسف ويقول ما فعلت لهم المسكينة. وكـــان أهـــل سجلماسة لما استغربوا أمرها يزورونها ولسيما النساء، فيكثرون عليها من تعليق الخيـــوط

ويطرحون الفلوس أسفلها...حتى كانوا ينتسبون إليها من ترهات الأراجيف نحو قولهم: قالت الشجرة الخضراء: هذا زمان السكوت ومن قال الحق يموت"(36).

ويعلق اليوسي على هذا الإسقاط التشاؤمي المستسلم، بضرورة استعمال الحذر في "آخر الزمان" هذا الذي ظهرت فيه البدع وطغى الفساد على الصلاح والهوى على الحق، ويختم قوله:"نعم لابد من للناس من تنفيس"(37) وهذا التنفيس هو الاعتقاد بالخرافات.

وعموما فإن هذه الظواهر لا تقتصر على تافيلالت، بل شملت جميع مناطق بلاد المغرب الأقصى، والأمثلة على ذلك كثيرة فاليوسي يذكر أن هناك من ادعى الصلاح من اليهود – بعد إخفاء يهوديته التي انكشفت في ما بعد – وكان الإقبال عليه شديدا، ويدعي أن بمستطاعه أن يبلغ الشخص إلى مكة ويحج في طرفة عين، واستمر على ذلك مدة من الزمان"(38).

كل هذه النصوص تجعلنا نستشف أن هذه الفترة وصل فيها المجتمع إلى حالة التفاعل مع العديد من الظواهر الفكرية المعتمدة التي أثرت سلبا على عقليته ومستوى تفكيره وهو الشيء الذي جعله يرفض أي تجديد. هذه العقلية الجماعية وجدت نتيجة تراتبية ظروف طبيعية وسياسية اصطدم بها فخلقت له نوعا من الارتكان والبؤس حتى جعلته يصف الكثير من الأشياء بنوع من الغرائبية

الوثيقة

الحمد للمحضر بمجلس الشرع العزيز لدى العلامة المدرس الفقيه القاضي أبو الوليد عبد المالك بن محمد التجموعتي سدده الله وأعانه، ومن أهل "أنبذور" الحاج محمد بن غانم من السمونات وعبد الله بن دحمان من لوجالصة وعبد المومن بن الشيخ من تاحسنونت والطالب عبد الله بن عبد الجليل من أولاد الإمام والميريزيكيدار والطالب العربي بن عمر وأحمد بن عبد الرحمان من الجبيل وغير من ذكر من أهل البلد "أنبذور" ما عدا السيفة وذلك لما اجترف سيل الواد الأعظم وادي سجلماسة حطمها الله، سد

ساقيتهم وتعذر عليهم تناول الماء من الواد لمزارعهم ونخيلهم بزعمهم فالتمسوا من منفـــذ الأحكام الشرعية والناظر فيها ساعتئذ لسجلماسة أن ينظر في قضيتهم ونازلتهم بمقتضـــى الشرع العزيز فنظر في ذلك بأن وجه أهل البصر والخبرة لمعاينة ما ادعوه تثلم السد المشـلو إليه وتعذر سلوك الماء لساقيتهم فاتفق ثلم الواقع به بالإصلاح فنظروا في ذلك وعـــاينوه وطافوا به كما ينحو فألفوا الأمر على نحو ما ادعوه، وأدوا بذلك بحينه ندب لسان الشرع العزيز أهل السد الذين فوق سدهم وهم أهل تيطاف ومن شاركهم من أهل "تانيجيوت" إلى الربو بإخوانهم أهل "أنبذور" بأن يعيرهم ساقية على سدهم يتداركـــون زروعـــاتهم ومرافقهم فانتدبوا رغبة في الثواب وامتثالا لما أمر الله به ورسوله من المعـــروف والرفـــق بإنجاز حسبما في الصحيح من وكلت جبريل لسيدنا المختار فأعذرهم تناول المـــاء مـــن سدهم فتناولوه واستاقوا به واتفقوا ففوض أحكامه مدة [...] إصلاح سدهم الوريـــد فتكاظم أمواج الواد الأعظم وتتابع السيول وذلك في سنة ثمانية وثمانين إلى ســـنة اثنـــين وتسعين فإن الواد في هذه السنوات مد واستبحر وفي سنة تسعين تهدم سد أهل "أنبـذور" وتهور. ولما جف الوادي ونضب ماؤه وظهرت أرضه وصحت سماؤه طالبهم أهل العالية باستردادها وأشاروا عليهم بتهيئة مؤونة إصلاح سدهم واستعدادها فأجـــابوهم بلبيـــهم وشكروا لهم سعيهم بعد أن سألوا منهم أن يشاركهم في سدهم ويدفعوا إليهم ما ينوبهـــم من ذلك فامتنعوا معتلين بارتفاع ساقيتهم وانخفاض ساقية "أنبذور" بحيث إن قل الماء مـــن الواد لا يصل لساقيتهم منه شيء. ولذلك المعاليق، فظهر وجه ما اعتلوا به ولا جبر عليهم من قبل الشرع العزيز ولا سيما مع أفكان إصلاح سدهم بشهادة من له الخبرة من أهـــل البصر والمعرفة ولما أيسوا من المشاركة لأجل ما ذكر انقلبوا وعدلوا إلى التمـــاس إنشـــاء ساقية أخرى فوق سد أهل المعاليق وزعموا أن سدهم لا يقبل للإصلاح فوجه الشـــرع العزيز من له خبرة من أهل البصر ومن أهل البناءات وهما المعلم أبو المسلم البوعصـــامي والمعلم عبد الواحد بن عطو اليوجدوري فنظروا في ذلك نظرا شـــافيا فواجـــاده قـــابلا للإصلاح في أقرب مدة وأديا بذلك فخاطبهم لسان الشرع العزيز بألا ساقية لهـــم مـــن

الواد ولا سد سوى ساقيتهم وسدهم حسبما هو وريد المعلم ومتنه والأمهات السهلة التداول مشحونة بذلك والأصل بقاء ما كان على مكان ولا يعدل عنه من غير مقتضى شرعه فإن قبلوا النازلة المتنازع فيها كنازلة عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه مع المازني مأوى الأنصار. بجامع التحويل وقد قضى فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعبد الرحمان بن عوف بتحويل ربيعه مع أن الملك ملك الأنصار ولا ملك لأحد لخصوص في الحادثة الوقتية. فلنا قال الإمام مالك فيما رواه سحنون عن ابن القاسم عنه، ليس العمل على قضاء عمر في ذلك والقضية إحدى القضايا الثلاث التي المذهب فيها على خلاف قضاء عمر رضي الله عنه، وقد ناول العلماء ذلك باستقامة الزمن والناس ووقوفهم مع الحق والعدل والإنصاف زمن عمر رضي الله عنه فتغيرت الأحوال واستحلال الناس ما ليس لهم في عهد الإمام مالك رضي الله عنه، فخشى أو طال الزمان ونسي ما كان عليه جري الماء أن تحدث دعاوي باطلة ومن أصول مذهبه سد الذرائع مع أن على صحة ما ذهب إليه رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لا يحلبن أحد ماشية أخيه إلا بإذنه" وذلك واضح يسر على أن قضية عبد الرحمان بن عوف والمازني رضي الله عنهما عينية والقضايا العينية لا عموم لها على إمام وذلك مذهب صحابي وفيه ما هو مقرر في محله من الأصول وأدروا الأمر جدا وأخذوا في بث الرشاوي وتوزيع الدراهم على الأرامل والأيتام ليدفعوها في أبطال الحق وإحقاق الباطل ويأبى الله إلا أن يتم نوره وحين لم يجدهم ذلك نفعا رجعوا الأمر المدب وأخذوا ما في نقل الحجر وغيره من مؤونة الإصلاح لسدهم وفي أثناء ذلك سافر منفذ الأحكام الشرعية للحضرة المولوية حضرة مولانا السلطان أدامه الله فعدلوا عن إصلاح سدهم القابل بشهادة من ذكر إلى إنشاء سد آخر تحت سد المعاليق وكنت إذا خاصمت حكمتهم على [...] حتى خاصمتني الدراهم وما عدا منفذ الأحكام الشرعية من مغيبه حتى أنشئ السد وجروا عليه الماء بوصوله البلد واشتكى أهل "تانيجيوت" وغيرهم بضرر السد الجديد بهم لبنائهم إياه في محل لا يعقل لهم شاذه ولا فاذه من الماء الصافي لانحدار الساقية المنشاة وارتفاع السد. فحضر بمجلس الشرع العزيز

أهل "أنبذور" فزعموا ألا ضرر في ذلك فوجه الشرع العزيز أهل البصر والمعرفة بالسدود والسواقي لينظروا، فنظروا فوجدوا السد المنشاء ضارا بمراد سبحانه لمنحه الماء القائم ورده إلى الساقية المحدثة خلاف ما كان عليه الأمر مع سدهم القديم وساقيتهم "أنبذور" وانخفاض أرض الوادي حيث السد القديم وارتفاع الساقية يمنع من أخذ جو الغير وذلك بحبسه نظرا للواقع المبرر من حكمته فخاطبهم لسان الشرع العزيز لإصلاح سدهم القديم وإبطال المحدث فأعازوه أن أقاسم السنة. فكما تماديا على غيرهم وتمردهم وتعاميا عن الحق بتلذذهم وتمردهم حاشا قبيلة السيفة فقد دبروا ورفعوا التراع وقدر بإصلاح سدهم بعض وضوح الحق ولا دفاع ولما ثبت ذلك كله حق الثبوت وتقرر على حسب ما ذكر من الأوصاف والنعوت حكم الشرع العزيز فصار السد الجديد [...] وبإصلاح سدهم القديم وبقاء الأمر على ما كان عليه قديما من المنهج القويم حكما أنفذه وأقضاه واستل حسوم العمل به وانتضاه محمد عليه حفظه الله من الشهوة وهو محمد [...] له ذلك وبتاريخ أواسط ذي الحجة الحرام سنة خمسة وتسعين وألف [...].

الهوامش:

1) — التازي عبد الهادي: نفس المرجع، ج.1 ، ص.21.
2) — محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، م.س. ج.2 ، ص. 37.
3) — أنظر الخريطة المتضمنة للسدود والسواقي الموجودة على سافلة سد "أنبذور" في ملحق البحث.
4) — أنظر الخريطة المتضمنة للسدود والسواقي الموجودة على سافلة سد "أنبذور" في ملحق البحث.
5) — عبد اللوي العلوي احمد، م.س. ، ج.1 ، ص. 336 – 337 – 338 – 339 – 340.
6) — أنظر الصورة الخاصة بسد "أنبذور" الموجودة في ملحق البحث.
7) — سورة الماعون، الآيات، 4 – 5 – 6.

8) ــ الندلسي أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، كتاب المحلى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، طبعة مصححة، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ج.9 ، ص. 168.

9) ــ الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد، نيل الأوطار عن احاديث سيد الأخيار، شرح منتقى الأخبار، بيروت، لبنان، ط1 ، 415هـ / 1995م، ج.5 ، ص. 325. رقم الحديث.2391.

10) ــ الإمام أنس بن مالك، الموطأ برواية يحي ابن يحي بن كثير الليثي الأندلسي القرطبي، مع الإشارة إلى رواية محمد بن الحسن البستاني المتوفى 189هـ ، ضبط وتوثيق وتخريج صرفي جميل العطار ، دار المعرفة، فيكتور هيكو، الدار البيضاء المغرب، بدون سنة الطبع، ص.589. رقم الحديث 1812.

11) ــ أبو القاسم الزياني، البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف، ج.1 ، ص. 165.

12) ــ أنظر الوثيقة الجديدة رقم 1 ، في ملحق البحث.

13) ــ الوزان الحسن، م.س.، ج.1 ، ص.126.

14) ــ اعمالك أحمد، أزمة (1071 – 1072) وأثرها على أوضاع المغرب في أثناء قيام المولى رشيد، أعمال الدورة الأولى، جامعة مولى علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989م ، ص. 223 – 224.

15) ــ القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، النشر والتوزيع مكتبة الطالب منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الطبعة 1402هـ / 1983م ، ج.2، ص. 251.

16) ــ أنظر الوثيقة الجديدة رقم 1 الموجودة في ملحق البحث.

17) ــ القادري محمد بن الطيب، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر. تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، الطبعة الأولى 1403هـ / 1983م ، ص. 157.

18) ــ القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني، ج.2 ، ص. 232.

19) ــ اعمالك أحمد، م.س. ، ص. 223 – 224.

20) ــ القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني، ج.2 ، ص.251.

21) ــ الأسير مويط، ترجمه إلى الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، رحلة الأسير مويط ، ص. 39.

22) ــ رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل القبلي، م.س.، ص.79.

23) ــ (أولاد من لا يخاف(إحدى الزوايا الموجودة بمدينة الريصاني إلى الجهة الجنوبية الشرقية منه أنظر الخريطة. أنظر الخريطة رقم 1.

24) ــ اليوسي أبو علي، رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل القبلي، م.س.، ص. 211 – 212.

25) ــ القادري محمد بن الطيب، كتاب التقاط الدرر، ص. 204.

26) ــ اليوسي أبو علي، م.س.، ص.211 – 212.

27) ــ م.س.، ص. 79.

28) - أنظر الوثيقة الجديدة رقم 1 في ملحق البحث.

29) - العلوي المدغري عبد الكبير، الفقيه أبو علي اليوسي بتصرف عن كتاب الإشارة الناصحة لمن طلب الولايـــة بالنية الصالحة للمرغيثي، مخطوط رقم 91، ج الخزانة العامة، الرباط.

30) - الوثيقة الجديدة الموجودة في ملحق البحث رقم 1.

31) - العلوي المدغري عبد الكبير، الفقيه أبو علي اليوسي، ص.46 بتصرف في كتـــاب المحـــاضرات لليوســـي، ص. 106.

32) - القادري أبو الطيب محمد، كتاب التقاط الدرر، ص. 295.

33) - أبو سالم العياشي، م.س. ماء الموائد، ج.1 ، ص. 16 – 17.

34) - أبو سالم العياشي، م.س. ، ج.1 ، ص. 16.

35) - العلوي المدغري عبد الكبير، م.س.، ص.60.

36) - اليوسي حسن، المحاضرات، ص. 43.

37) - م.س. ، ص.46.

38) - م.س. ، ص. 46.